

العطاء ومعادلة العبادة



- روحية العطاء:

يريد الله تعالى للإنسان سواءً كان رجلاً أو امرأة أن يعيش روحية العطاء، وذلك بما تمثله كلمة الصدقة من مفهوم العطاء قرابةً إلى الله تعالى، فيقول الله سبحانه وتعالى: (إِنَّ الْمُسْتَدْرِينَ وَالْمُسْتَدْرِيَّاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفْ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ) (الحديد/ 18)، يُحث الله الإنسان على أن يوظف بعض القدرة المالية في أن ينفق الآن، لأنه قد يملك الفرصة في أن يتصدق على الفقراء والمحرومين، ويقول له، بأن الصدقة عبادة، فأنت إذا أعطيت إنساناً فقيراً محروماً قرابةً إلى الله تعالى، فإن عطاءك هذا صلاةٌ تصلّيها، فكما أن الصلاة تكون بالأذكار والحركات من ركوع وسجود، فإنّها تكون بالصدقات. وهذا هو الذي جعل عليّاً (ع) يتصدق بخاتمه وهو في حال الركوع، لأنه (ع) كان لا يرى فرقا بين الصدقة والصلاة، فهو عندما يركع ويسجد بين يدي الله، فإنّه في حالة صلاة، وعندما يتصدق، فهو في حالة صلاة أيضاً، فهناك صلاة الركوع، وصلاة الصدقة.

ثم إن الله تعالى يقول، لا تعتبر الصدقة عندما تتصدق بها - أيها الرجل وأيتها المرأة - خسارةً، لأنه سبحانه يعتبر صدقة المتصدقين والمتصدقات قرصاً حسناً في حساباته، والصدقة عندما تعطيتها للفقير، فإنّها تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير، كما جاء في بعض الأحاديث، فالله يستقرض منك بالفائدة، والفائدة عند الله ليست كفوائدنا نحن، بل يعطيها مضاعفة، أي مئة بالمئة.

(إِنَّ الْمُسْتَدْرِينَ وَالْمُسْتَدْرِيَّاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)، هي دَيْنٌ في ذمّة الله، يوفيكه الله مضاعفاً يوم القيامة (يَوْمَ لَا يَنْدِفَعُ مَالٌ وَلَا يَنْدُونُ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَرْضٍ سَلِيمٍ) (الشعراء/ 88-89)، وليس هذا الدَيْنُ يُضاعف مئة بالمئة وحسب للإنسان، بل (وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ)، أي هناك ما فوق المضاعف، وهذا هو الذي يدفعنا لأن نفكر دائماً بانتهاز فرصة إمكاناتنا حتى نُعين الناس الذين يحتاجون إلى معونتنا. وقد يعتبر الكثيرون

إيمان الكلمة. وعلى هذا، فإننا نعرف عمق الإيمان من خلال موافقه، في العقل واللسان وفي حركة الجسم، أي أن يكون عقلك عقلاً مؤمناً ولسانك لساناً مؤمناً، وجسدك جسداً مؤمناً، وجسدك جسداً مؤمناً يتحرك كما يحب الله أن يتحرك، ويقف كما يريد الله أن يقف. وإذا كنت كذلك، فما هي صفتك عند الله؟ (والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون) (الحديد/ 19)، الصديق أكثر من الصادق، وهؤلاء صدقوا الله بعقولهم وألسنتهم وحركتهم في الحياة، فليست هناك كذبة في خفقات القلب، ولا في فلتات اللسان، ولا في حركة الجسد (أولئك هم الصديقون) (الحديد/ 19)، الذين يجعلهم الله شهداء على أمتهم. كلما عظم إيمان الإنسان، كلما استقام طريقه وانفتح على ربه، وكان شاهداً عند الله على المجتمع الذي عاش فيه، لأنه يظل على مجتمعه من موقع استقامته في الخط (أولئك هم الصديقون) (الحديد/ 19)، فإن يعطيهم أجرهم، ويحوّل إيمانهم إلى نور في وجوههم يوم القيامة (يوم ترى الأمم منبئين والهمم منبئات يسمعون نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشركهم الذي يوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) (الحديد/ 12)، وهؤلاء يطلبون من الله (ربنا أتمم لنا نعمنا وعلينا) (التحريم/ 8)، أكمله لنا، لأن النور قد ينتقص بفعل بعض السيئات والمعاصي.

هؤلاء هم المؤمنون، وأمّا الكافرون والكاذبون، فما مصيرهم؟ (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) (الحديد/ 19). هكذا باختصار ومن دون تفاصيل.

- الدنيا الغرور:

والآن نعود إلى الدنيا، وما هي صفاتها (اعلموا) اعلموا، تيقنوا من خلال التفكير والدراسة وملاحقة الحياة في كل أحداثها ومراحلها وطبيعتها، ما هي صورة الحياة الدنيا في العمق؟ (اعلموا أنما الحياة الدنيا زينة ولهو ولعب) (الحديد/ 20)، وتتطور "الألعاب" حسب تطور العصر، فنرى بعضاً من الرجال تأثت، وبعضاً تذكر، ويظهر التفاخر بين الناس، هذا يدعي بأنه صاحب المجد الرفيع، وذاك يفخر بالنسب العظيم، وذلك يعلن اعتزازه بكثرة المال والأولاد (وتتفاخرن ببيئكنم وتكاثرن في الأموال والأولاد) (الحديد/ 20)، يتفاخرون على طريقة "صاحب الجنين" (فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً) (الكهف/ 34)، وكانت نتيجة افتخاره (وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيبه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك برببي أحدًا) (الكهف/ 42).

الدنيا في سطحها سائرة على هذا الأساس، والناس عادة يهتمون بالسطح ويصرفون نظرهم عن العمق. وما الدنيا فيما لو أردنا المقارنة؟ (كمثل عيث أعجب الكفار نباته) (الحديد/ 20)، ليس المقصود بكلمة الكفار، الجاحدين في مقابل المؤمنين، الكفار يعني الفلاحين، لأن الكفر لغويًا هو الستر، والفلاح يستر البذرة بأن يجعلها في عمق الأرض ويضع التراب فوقها. لذا، سمي الكافر كافرًا لأنه يستر الحق، مثلما يستر الفلاح البذرة. (أعجب الكفار نباته) (الحديد/ 20)، فأعجب الفلاحين (ثم يهيج فتراه مصفراً) (الحديد/ 20)، فهذه الخضرة في النبات، وهذا التنوع في الأشجار والأثمار، لا يبقى على حالة، يأتي الخريف فتساقط وتصفّر (ثم يكون حطاماً). يتفتت ويتحطم على الأرض. وحال النبات، حال الإنسان، يبدأ حيناً ثم طفلاً وبعدها شاباً، ثم ينتقل إلى الكهولة والشيخوخة، فالموت بهذه هي الدنيا، وماذا في الآخرة (وفي الآخرة عذاب شديد) (الحديد/ 20)، لمن كفر وانحرف عن خط الله (ومعفرة من الله ورضوان) (الحديد/ 20)، تستطيع أن تحصل على الرضوان، إذا كان لعبك ولهوك وزينتك حلالاً، وإذا كان فخرك بالحق، وتكاثرك بالعمل الصالح والخدمات والمشاريع العامة، وهكذا تستطيع أن تحصل على الجنة، أمّا إذا كان لهوك حراماً وزينتك حراماً وتفانك بالباطل، فإن العذاب الشديد بانتظارك (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (الحديد/ 20)، فهي متاع الخداع، لأنه من هو الذي صفت له الحياة الدنيا، أو خلد فيها واستراح. ففي الحديث: "من كانت مطيته الليل

والنهار، فإنه يُسار به وإن كان واقفاً".

وهكذا العمر يمشي وأنت واقف، لأن لكل شيءٍ حركته وللعمر حركته، ولذلك يجب على الشباب أن يستغلوا الفرصة، فالشباب قوّة وحيويّة وعزيمة وصلابة، فليكن لديكم شباب العمل وشباب الطاعة وشباب الجنّة.

وتراكموا خيلَ الشباب وبادروا **** أن تُستردّ - فإنهنّ عواري

فالحياة كما أخذت آباءكم وأجدادكم ستأخذكم، فلا تغتروا بها، وانظروا إليها نظركم إلى رحلة تقطعونها لتتهيئوا لمرحلة جديدة، وعلى هذا (سابقوا إلى مغفرةٍ من ربّكم) (الحديد/ 21)، إنزلوا إلى ساحة السباق، وليس سباق الخيل، بل السباق نحو الهدف وهو رضى الله تعالى لتحصلوا على مغفرته (وجنّةٍ عرضها كعرض السمّاء والأرض) (الحديد/ 21)، وليس هنا العرض مقابل الطول، حتى يُقال: إذا كان عرضها عرض السماوات والأرض، فكم يبلغ طولها؟ المقصود بالعرض هنا، السّعة، أي أنّ سعة هذه الجنّة كسعة السماوات والأرض (أعدّتّ للذين آمنوا باللاه ورسله) (الحديد/ 21)، لهؤلاء الذين آمنوا بعقولهم وألسنتهم وحركة أجسادهم، كما شرحنا ذلك في بداية البحث (ذلك فضلّ الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) (الحديد/ 21)، فالمغفرة والجنّة فضلّ من أفضال الله، يتفضّل به على من يشاء من عبادة الذين وفقهم للإيمان والطاعة.

المصدر: كتاب من عرفان القرآن